معالم الجماعة الدعوية الفعَّالة في ضوء أحوال العمران البشري وسننه عند ابن خلدون

Indicators of Efficient Missionary Community in Light of the Conditions and Laws of Human Civilization According to Ibn Khaldun

Penunjuk Kumpulan Daʿwah Efektif Berdasarkan Ehwal dan Tata Tamadun Manusia Menurut Ibn Khaldun

صالح بن طاهر مشوش *

مستخلص البحث

ينظر البحث في العوامل النفسية والاجتماعية لنجاح الجماعة الدعوية وفق طبيعة العمران البشري وأحواله، وذلك من خلال التركيز على رؤية ابن خلدون وتحديداته لأبعاد العمل الدعوي والشروط النفسيّة والمعرفيّة والاجتماعية والثقافية. ولذلك قام الباحث بتحليل جملة من الشروط الضرورية للبناء الجماعة الدعوية الفعالة وإدارتها مع بيان علاقات التلازم بين تلك الشروط. كما حاول الباحث تحديد مجموعة من المعايير التي تتأكد أهميته في النظر إلى صفة الفعَّالية تفسيرًا وقياسًا، مع مراعاة الإطار الديني العقدي الذي تقوم عليه الجماعة الدعوية. وقد اعتمد الباحث في دراسة الموضوع القراءة الموضوعية لنصوص الوحي الأصلية، وتحليل خطاب ابن خلدون في المقدمة بشأن طبيعة الجماعة الدعية وتشكلها، كما استفاد من

* أستاذ مساعد، قسم الدراسات العامة، كلية علوم الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة اللإسلامية العالمية–ماليزيا،
البريد الإلكتروني: bentahar@iium.edu.my أو jiasia03@yahoo.ca

تنظيرات ودراسات عدد من العلماء والباحثين المعاصرين الذين اهتموا بقضايا الدعوة ومناهجها وغاياتها والتحديات التي تواجهها، سعيًا في ذلك إلى بناء نظرته واستخلاص نتائجه مستصحبًا الحالة الدينية التي يعيشها المجتمع المسلم في الوقت الراهن.

الكلمات الأساسية: الدعوة، الجماعة الدعوية، الفعالية، الإيمان، العمران البشري، ابن خلدون.

Abstract

The article looks into the psychological and social factors shaping the success and prosperity of missionary or *da'wah* groups (*al-jamā'ah al-da'awiyah*) in accordance with the conditions of human civilization (*al-'umrān al-basharī*). This has been done by highlighting Ibn Khaldun's (d. 808 AH/1406 AD) view of human association and his identification of the dimensions and psychological, cognitive, social and cultural conditions of missionary or *da'wah* activities. For this the author has analyzed a set of factors that are necessary for the edifying and management of efficient and efficacious *da'wah* groups, while highlighting the correlation among those factors. The author also attempted to identify a set of criteria that are required for explaining and measuring the quality of efficiency and efficacy as pertains to *da'wah* groups seen in the religious and faith context of such groups. The develop his thesis and support his conclusions, the writer has undertaken a thematic reading of the fundamental textual sources of Revelation and analysis of Ibn Khaldun's discourse in the *Muqaddimah* as regards the nature, shaping and definition of efficacious *da'wah* group. He also drew on the works of a considerable number of contemporary scholars and researchers who addressed many issues concerning the methods and goals of *da'wah* as well as the challenges facing it. All this has been done while due attention is paid to the generation religious situation engulfing Muslim society at the present.

Key words: *Da'wah*, missionary groups, efficacy, faith, human association, Ibn Khaldun.

Abstrak

Artikel ini melihat faktor-faktor psikologi dan sosial yang membawa kejayaan kepada kumpulan da'wah berdasarkan keadaan tamadun manusia. Ini adalah sebagai ringkasan pandangan Ibn Khaldun tentang kelompok-kelompok manusia dan kaitannya dengan dimensi dan syarat dalam bentuk psikologi, kognitif dan sosial dengan aktiviti-aktiviti da'wah. Pengkaji menganalisa beberapa faktor yang perlu dalam

membentuk kumpulan da'wah yang efektik dan pengurusannya di samping penerangan tentangan hubungan korelasi antara faktor-faktor tersebut. Dalam menerangkan dan mengukur keberkesanan dan kesan yang berkaitan dengan kumpulan da'wah dalam konteks agama kumpulan ini, penulis mengenal-pasti kriteria yang diperlukan berdasarkan tafsiran dan analogi. Penulis berpegang kepada sumber kajian teks berdasarkan wahyu dengan menganalisa wacana Ibn Khaldun dalam al-Muqaddimah berhubung dengan hakikat, bentuk dan definisi kumpulan dakwah efektif dan masalahnya sebagaimana segolongan ulama dan pengkaji semasa mengambil faedah menerusi pelbagai pandangan dan kajian yang dibuat. Mereka ini menitik-berat tentang pelbagai isu dan metod, tujuan, cabaran yang akan dihadapi. Semua ini dibuat dengan melihat keadaan agama kini selari dengan keadaan masyarakat Islam semasa.

Kata kunci: Da'wah, kumpulan dakwah, gerakan, faith, tamadun manusia, Ibn Khaldun.

تمهيد

لقد كثرت الجماعات الدعوية الساعية إلى إحياء الدين في قلوب المسلمين بالعودة إلى أنموذج الجماعة المسلمة الأولى التي أسسها النبي ﷺ، لكن كثرة المشكلات التي يفرزها الوضع الراهن للعمران البشري وشدّتها وتعقيداتها دفعت كثيرًا من تلك الجماعات إلى ارتكاب أخطاء يختلف حجمها بحسب حجم الدور الذي تقوم به تلك الجماعات، والمنهج الذي تسلكه في طريقها إلى إصلاح المجتمع وبنائه الذي تتحرك فيه. وبالرغم من توفر كم هائل من العلوم، والمعارف الإسلامية المستمدة من مصادر الوحي التي تبين مفهوم الجماعة الإسلامية وطبيعتها، وبنيتها، ورؤيتها، ومبادئها، وعوامل قوتها، وطبيعة العراقيل التي تواجهها، ووسائل الحفاظ على قوتها وهيمنتها، وعلاقاتها بالجماعات الدينية الأخرى، وغيرها من الجوانب إلا أن الواقع يشهد أن تلك العلوم كان العمل بها قليلاً، وكأن تلك العلوم لم تصل إلى آذان القائمين بإدارة الجماعات الدعوية، أو أن ثمة عراقيل حقيقة حالت بين استيعاب تلك العلوم وبين تغيير الواقع المرير وفق تلك الصور النموذجية للجماعة الدعوية التي بناها الإسلام بقيادة خاتم النبيين محمد ﷺ. لا شك أن النظر في الصور المتعارضة في المسألة المتمثلة

في توفر (علم كامل) لبناء الجماعة الدعوية الفعالة من جهة وضعف أثرها وتداولها عمرانياً من جهة أخرى يقودنا إلى مراجعة بعض الحلقات التي تقع بين ذلك العلم، والواقع الذي يقصد صناعته وبناؤه أو تغييره. في هذا البحث نركز أكثر على دراسة جانب واحد من جوانب الفجوة المذكورة، ألا وهو خاصية الفعَّالية في ضوء معايير الوحي وهديه في إدراة الجماعة الدعوية. وهذا يجعل الباحث يركز أكثر على تحليل بنية الجماعة الفعّالة في ضوء مصادر الوحي، وتكون الإشارت إلى الجماعات والحركات عند الضرورة للتمثيل والبيان.

لقد قدَّم الدين الإسلامي نماذج كاملة من التوازن والوسطيَّة والفعاليّة في إدارة الجماعة بأكبر حجم ممكن في حياة المجتمع البشري، ولهذا جاء خطابه عالمياً، متجهاً إلى المجتمع الإنساني بكليته، وهذا التوجّه يؤكده رفع خطاب بناء الأمة بحجم ذلك المقصد؛ لذا تجاوز الإسلام (دائرة الأتباع) إلى (دائرة الأمة الواحدة والوسطية والخيرية)، وهي النقلة التي حققتها الرسالة والنبوة الخاتمة[1]. ولما كانت (الجماعة) تمثل الكيان الكلي الذي يضمُّ أتباع الرسول محمد ﷺ، جاءت في القرآن سنن وقوانين ذهبية تبيِّن موادّ هذا الكيان، وتحدّد نظامه الداخلي، وشروطه، ووظيفته، وطبيعة أجزائه أو أفراده؛ حتى يصبح أمر بنائه والاحتفاظ به من الأمور التي يتوقف عليها الاستخلاف.

أولاً: مفهوم الجماعة والدعوة وأشكالهما في القرآن

إنَّ الذي يعود إلى مصادر الوحي يجد أن الإسلام قد أولى اهتماما لا مثيل له للجماعة، إذ بحث بين أهم تركيباتها وأشكالها ونظمها، وأسباب فسادها، وكيفية بنائها، وإدراة علاقاتها، فكلّ ما يتعلق بها قد ذكر وفصِّلت مسائله بحسب حاجة المسلمين وما تقتضيه ظروفهم الراهنة والمستقبلية. ومن أهم المحطات الأساسية التي توقفت عليها مصادر

[1] أبو القاسم، حاج حمد محمد، **العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة** (فيرجينيا: المركز العالمي للفكر الإسلامي، 1996).

الوحي في مسألة الجماعة: الفرد، والأسرة، والجماعة الإسلامية الصغرى، ثم الأمة. لقد بينت مصادر الوحي (القرآن والسنة) نظام التوازن الرباني الذي تقوم عليه هذه الدوائر؛ بحيث لا يطغى بعضها على بعض. فلهذا نجد أن القرآن قد أعطى اعتباراً كافياً لكلّ هذه الوحدات الإنسانية الأساسية. إنَّ قيمة الفرد المكتسبة في القرآن تساوي جماعة ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: 120)؛ وقد أورد القرطبي تفسير ابن مسعود ﷺ الذي قال فيه: إنّ "الأمة الذي يعلم الناس الخير"،[1] وهذا يؤكد على البعد الوظيفي، والاجتماعيّ للفعل الإنساني، وما يُكسبه من صورة الجماعة. وكذلك قيمته العينية التي جعلها الله فيه، يقول الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: 32). كما أن الجماعة الإسلامية لم توصف بالكثرة؛ بل بالوحدة ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 92). وهذا البيان للقيمة الحقيقية للجماعة، وبنيتها العددية له دلالة كبيرة في وضع معايير الجماعة النموذجية التي من صفاتها: الخيرية، والتوازن، والوسطية، والاستقرار، والأمن، والشهادة على أوضاع العمران البشري وجماعاته وفق الظروف والأحوال التي يمرّ بها في حركته ونموه.[2]

لقد ورد لفظ "الجمع" في القرآن على ثلاثين وجهاً باعتبار المعنى والدلالة التي تحملها كما ذكر ذلك الفيروزآبادي.[3] فقد ترد على صيغة صفة عددية كـــ "جميعًا"

---

[1] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1964م)، ج10، ص198.

[2] لمعرفة ما جاء في السنة النبوية وأثر الصحابة حول أهمية الجماعة، انظر: ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العبكري (ت. 387هـ) **الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، تحقيق: رضا بن نعسان معطي (الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، 1988)، ص280-365.

[3] الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** (بيروت: المكتبة العلمية، 1984م)، ج2، ص390.

(البقرة: 29)؛ (النساء: 71)، "أجمعين" (البقرة: 161)، "جميع" (يس: 53)، واسم فاعل "جامع" (آل عمران: 9)؛ (النساء: 140)؛ "مجموع" (هود: 103)، وعلى صيغة فعل مثل "جمعناهم" (آل عمران: 25)، "يجمعون" (آل عمران: 157) "جمعوا" (آل عمران: 173)، "يجمع" (المائدة: 109)، "أَجْمِعُوا" (يونس: 71)، "اجتمعت" (الإسراء: 88)، "فَجَمَعَ" (طه: 60)، "اجتمعوا" (الحج: 73)، واسم كـــ "الجمعان" (آل عمران: 155)، "جَمْعُكُم" (الأعراف: 48)، "مجمع" (الكهف: 60)، وصفة "مجتمعون" (الشعراء: 39)، "جمعاً" (القصص: 78)، "الجمع" (الشورى: 7)، وإسم "الجمعة" (الجمعة: 9)، "جَمْعاً" (العاديات: 5).

وورد مفهوم (الجماعة) بمسميات أخرى تعكس بعض المعاني والمميزات الذاتية لتلك الجماعات التي يقصد الإشارة إليها مثل كلمة "فوج" (ص: 59)، و"أفواجاً" (النبأ: 18)؛ وهي تدلُّ على ما يمكن تسميته بـــ(الجماعات العملية) التي يسند إليها القيام بأنشطة خاصة داخل جماعة كبرى، أو تحمل من الخصائص ما يميزها عن (الجماعة الأم). كما جاءت كلمات أخرى بمعنى مقارب مثل (فرقة) (التوبة: 122) و"فريق" (البقرة: 75)، "فريقين" (هود: 24) وهي كما جاءت في القرآن جماعة سلبية في الغالب، وكذلك وردت كلمة "شيعة" و"شيع" (الأنعام: 65)، و"أشياعكم" (القمر: 51). قال فخر الدين الرازي (ت. 604هـ) في تفسيره "كل قوم اجتمعوا على أمر مهم شيعة والجمع شيع وأشياع".[1] والجماعة التي تحمل هذا الاسم غالباً ما تنتمي إلى أنماط الفرق السلبية؛ المتنافرة والمتصارعة بأهواء مختلفة كما هو بيِّن في قوله تعالى: ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: 65)، وتدل كذلك على الجماعات الدينية الضَّالة (اليهود والنصاري)، وفِرَق من أهل البدع والأهواء والشهوات[2] التي مالت عن

---

[1] الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب** (القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1981)، ج13، ص24.

[2] انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج14، ص9.

منهاج الوحي وأحكامه في ممارسة الدين والعمل به، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: 159).

وإلى هذه المجموعة يمكن أن تضاف كلمة "حزب" و"الأحزاب" (هود: 17)، "الحزبين" (الكهف: 12)، وهي الجماعات التي تنشأ في ظروف "الخلاف" (الزخرف: 65) و"الفرقة" ويتبع ذلك أحوال الاستقطابات والصراعات، والتكتلات، والانقسامات، والتقلبات والانهيارات. لقد أبرز القرآن هذه الظروف حين استخدم كلمة (حزب) باستثناء الموضع الذي أشار فيه إلى جماعة الأمة التي تقيم دين الله أتمّ قيام، وبناءً على ذلك سمّى تلك الجماعة بـــ "حزب الله" (المائدة: 56)، – وهي الجماعة التي تقابل "حزب الشيطان" (المجادلة: 19) – وحزب الله هو الذي ينتمي إليه كل مؤمن صادق في عقيدته، وعبادته، ومعاملاته، وليس كما اتخذته بعض الجماعات المعاصرة كإيحاء ديني ودعوة طائفية جاهلية وبغض دفين للإسلام والمسلمين. و"الطائفة" (آل عمران: 69)، "الطَّائِفَتَيْنِ" (الأنفال: 7) "طَّائِفَتَيْنِ" (المؤمنون: 9) وهي تدلّ على شكل لجماعة صغيرة ظرفية تتشكل تحت مظلّة جماعة أخرى كبيرة، أو سلطة قوم.

وأما كلمة "فئة" (البقرة: 249): فاسم جماعة، جاءت بصيغة النكرة في جميع مواقع ورودها في القرآن، يُسْتنتج من هذا أن هذه الجماعة يكون من خصائصها أنها غير معروفة، أو معلومة جلّها، أو بعض خصائصها. وهذا يمكن استنتاجه من سورة (آل عمران: 13)، حين أطلق الله تعالى هذه الكلمة على جيش المؤمنين ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وجيش الكفار ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، وكذلك في سورة (الأنفال: 16) ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ ومن خواصّ هذا النوع من الجماعة التكتم على العدو.

و"نفر" (التوبة: 122) وهي تعني الجماعات المجندة التي يُستعان به في الظرف الذي يُحْتَاجُ إلى النصرة، وهو المعنى الذي يدل عليه الفعل "انفروا" (النساء: 71). وهي تعني ذلك الجماعات المتباعدة التي تشير في معظمها إلى ظهور ظروف الصراع

والغلب، وهذا المعنى يمكن استنباطه من كلمة "نفوراً" التي جاءت في سورة (الإسراء: 46)، والتي تعني (بُعْداً). و"زمرة" و "زمر" (الزّمر: 71، 73) تدلّ على الجماعات المتميزة فيما بينها بالشدّة على الرغم من كثرة أتباعهما . ولهذا فقد استعملت في القرآن في موضعين فقط؛ موضع عينت فيه (جماعة المتقين) التي تدخل الجنة بإذن الله، و(الجماعة الكافرة) التي تدخل جهنّم بإذن الله. و"الملأ" (الأعراف: 75)، تدلّ على جماعة محدودة العدد، يتمتع أفرادها بامتيازات ومكانة خاصّة تجعلهم يتميزون عن أفراد أخرى من جماعتهم الأم، وهي تعني جماعة الأشراف، أو وجوه القوم وكبرائهم.

و"رهط" (هود: 91)، وهي تعني الجماعات الصغيرة، وقد تكون مشكّلة من أفراد العشيرة نفسها، أو أشخاص محدودين كما حدد القرآن نمط منها بعدد تسعة (النمل: 48) وهؤلاء لا تربطهم علاقة الدم، لكن يشتركون في امتلاك سلطة معينة اكتسبوها ضمن الجماعات التي ينتمون إليها.

و"العصبة" كما جاءت في سورة (يوسف: 8، 14)، تدلُّ على نمط من الجماعات الصغرى تتمتع بقوة التمساك والارتباط لتحقيق هدف معين كما يفهم من قوله تعالى: ﴿لَنَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (القصص: 76). وقد تحمل مميزات أخرى في مكان آخر كما في سورة النور قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ (النور: 11). وقد يقابلها جماعة أخرى سماها القرآن "شرذمة" التي وردت مرّةً واحدة فقط في سورة (الشعراء: 54): ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. و"العشير" (الحج: 13) و"عشيرة" هي الجماعات التي تربطها العلاقة الدموية.

أما الدعوة والفعل الدعوي الذي كلّفت به الجماعة المسلمة، فقد حظي كذلك بقسط كبير من البيان والتبيين الدقيق في القرآن الكريم. فموضوع الدعوة يُشكل محوراً أساسياً في حياة الأنبياء، ورسالاتهم وأتباعهم والأقوام الذين يدعونهم إلى التوحيد. فلا شك أن استيعاب ما جاء في القرآن وفقهه من تحديد طبيعة الفعل

الدعوي ووسائله يمثل مُعيناً أسياسياً في إنماء فعَّالية الجماعة الدعوية وتمكينها لتحقيق أهدافها التي لا يقوم المجتمع إلا بها. ومن التركيبات القرآنية التي تحمل معنى الدعوة وتشكل أهم نشاطاتها: الجهاد في سبيل الله (الحج: 78)، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (آل عمران: 104)، والتبشير والإنذار (التوبة: 122)، والشهادة على الناس (البقرة: 143)، والإصلاح بين الناس (النساء: 114)، والنصح (هود: 34)، والتذكير (ق: 45)، والتبليغ (المائدة: 67)، وإقامة الدين (الشورى: 13)، وإظهار الدين (التوبة: 33)، والتواصي بالحق (العصر: 3)، والتعاون على البر والتقوى (المائدة: 2). والنصرة (الأنفال: 72).

الجهاد	التبشير	الإنذار	النصح
الأمر بالمعروف	النهي عن المنكر	التذكير	إقامة الدين
الشهادة	التبليغ	إظهار الدين	النصرة
التعاون على البر	المجادلة بالتي هي أحسن	الدعوة إلى كلمة سواء	التواصي بالحق

الاتجاهات والمقاصد الدينية العملية للدعوة ووسائلها الكبرى في القرآن الكريم

ولا شك أن ظهور هذه الأوجه الدعوية في القرآن له دلالة كبيرة في تحديد طبيعة الدعوة ووسائلها، وكذلك الجماعة الدعوية وما يلزمها لاكتساب الوسائل الفعالة والمهارات، والعلوم والمعارف التي تقوم عليها. كما يمكن اتخاذها بوصفها محددات ومقاييس نظرية لمعرفة فعاليّة الجماعة الدعوية، وما ينميها من الوسائل التي تدخل في دائرة ذلك المحدد. كما أن هذه الأوجه تجعل الفعل الدعوى نشاطاً مرناً، وشاملاً، ومتنوعاً؛ يتجاوز كلّ الأعراض السلبية التي يعاني منها الناس والأتباع تجاه الدعوات الأيديولوجية الوضعية التي تفتقر كثيراً إلى شروط التوازن، والوسطية، والشمول، واتّباع الحقّ. فعلَى سبيل المثال إذا كانت أولوية الجماعة الدعوية متجهة إلى مقصد (التذكير)، فإنه لا بد أن تتزود بالمهارات، والإمكانات المادية والموارد البشرية التي تستطيع أن تقوم بهذه المهمة على أحسن وجه كالمعرفة بالتاريخ البشري، وقصص الأنبياء، والطبيعة البشرية وما مؤثراتها الذاتية والخارجية المعينة على الوصول إلى

المنبهات الذاتية حتى تحقق أحوال "التذكر" في أفراد المجتمع الذي تدعو فيه.[1] كما يجب على القائمين بهذه الجماعة معرفة الصور والأحداث الماضية وتطورها في المستقل من منظور مصادر الوحي. بينما إذا كان اتجاه الجماعة الدعوية هو (التبليغ)، فهنا يصبح مجال الفعل أوسع ووسائله أكثر لعموم تلك الوجهة، وهذا يكون أمره مختلفاً لو كان اتجاه الفعل الدعويّ على سبيل المثال هو (التواصي بالحق) الذي يحتاج من الجماعة الدعوية إلى إمكانات أكثر خصوصية وهي معرفة (الحقّ) وتمييزه عن الباطل والطرق اللازمة لتحقيق التواصي.

ثانياً: الجماعة الدعوية في خطاب ابن خلدون العمراني

لقد خصص ابن خلدون ثلاثة فصول على أقل تقدير لدراسة مسألة الدعوة والجماعة والقائمين عليها وهي: "في أن القائمين بأمور الدين من القضاء، والفتيا، والتدريس، والإمامة، والخطابة ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب"[2] أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك، أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة الحقّ"، و"أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها"، و"أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتمّ".[3] كما عالج ابن خلدون مسألة الدعوة بطريقة غير مباشرة في فصلي علم "الكلام"، و"التصوف".

بوضع هذه المداخل الكبرى في تحديد موقع الجماعة، تمكّن ابن خلدون أن يطلع إلى تلك الصُّور الكلية التي عرضتها مصادر الوحي حول الجماعة ووظيفتها. لقد أدرك ابن خلدون تماماً هذه الآفاق، بحيث جعل نشاط الجماعة وحركتها تساوي

---

[1] فمثلا الاطلاع على كتاب **التوهم** لعبد **الله الحارث بن أسد المحاسبي** (ت 243هـ) يساعد القائمين على الجماعة الدعوية بتقوية حالة (التذكر) فعل (الذكر) لله عزّ وجلّ، والآخرة والموت، والتكاليف... إلخ، وغيرها من المسائل التي يحملها الدين.

[2] ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، تحقيق: عبد السلام الشدادي (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005م)، ج2، ص266-267.

[3] المصدر نفسه، ج1، ص 266-272.

حركة العمران البشري بأسره. ولم تكن تفسيرات ابن خلدون للجماعة مجرّد انطباعات أو عرض عام للمسألة بقدر ما يمثل تحليلاً وتفسيراً لتركيبات، وتداخلات، وانجازات، وتشكلات، وتغلبات تتجلى من ورائها جماعات داخل العمران البشري. ويكفي أن يلاحظ الباحث الدوائر العمرانية الكبرى التي تناول فيها ابن خلدون كينونة الجماعة، وهي: الدعوة الدينية وبناء الحالة الدينية، وتشكيلات العمران البشري والتقلبات السياسية، المعاش وكسب الأرزاق، ثم الجماعات العلمية بأصنافها واتجاهاتها وأدوارها في بناء العلوم والمعرفة، واستخدامها لخدمة الدين والأمة.

1. المفاهيم الروحية النفسية للجماعة الدعوية

تُعَدُّ المفاهيم الروحية والنفسية من المكوِّنات الأساسية التي تقوم عليها الجماعات الإنسانية إلى درجة أنَّه يصعب الوقوف على أي جماعة يخلو خطابها منها بغض النظر عن ادعاء كثير من تلك الجماعات –خاصة الناشئة منها في ظل النظم المنفتحة على العالم المادي وكذا النظم الاستبدادية– بأن المفاهيم الروحية تمثل دائما وخطراً ممكناً؛ ينشِّط الأتباع للتحرك نحو إيجاد بدائل تنظيمية أفضل يتناسب مع فطرتهم الروحية، وشؤون النفس الإنسانية وطبيعتها المركبة. إن الخطاب الروحي والنفسي لجماعة ما يُعد من الوسائل المُعول عليها في تحقيق أهدافها؛ خاصّة في حالات الأزمات، ونقص الوسائل المادية لما يجرُّ إليه تقلب العمران وسُنَّة التدافع بين البشر والجماعات، فلهذا السبب يصبح البناء الروحي والنفسي للجماعة من بين أهم المتغيرات الحاسمة التي يحدد عمرها واستمرارها في العمران الديني. ولقد كان الرسول ﷺ يولي هذا الجانب اهتماماً خاصًّا، فقد اعتنى بتقوية الجانب الروحي، وإصلاحه، وتصحيحه لدى جماعة الصحابة. فقد عمل الرسول ﷺ على تقوية إيمان الجماعة المسلمة إذ كان هو مقصده الأسمى في دعوته والمعيار الأساس الذي يعتمد عليه في اتخاذ كثير من القرارات، فعلى سبيل المثال فقد حرم في توزيع الغنائم بعض الصحابة من الأنصار لما كان يجده فيهم من قوّة روحية وإيمانية، وبدأ بتوزيع الغنائم أولا على المؤلفة قلوبهم، فأعطى أبا سفيان

بن حرب أربعين أوقية، ومائة من الإبل تأليفًا لقلبه. فلما وجد الأنصار على رسول الله، أجابهم رسول الله ﷺ وقال: «أوجدتم عليَّ يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدُّنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم».[1]

واهتم النبي ﷺ كذلك بنمو البُعد الروحي لدى الصحابة، وكانت متابعته لهذا الجانب لا يماثله أي جهد إنساني آخر. يكفي هنا أن نشير إلى كيف عالج النبي ﷺ شعور أصحابه بالهزيمة في معركة أحد. بحيث عندما علم النبي ﷺ بأن المشركين يفكرون بالكرة مرّةً أخرى على المسلمين للقضاء عليهم، ندب الناس إلى المسير إلى لقائهم فقال لهم: «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال»، وأذن فقط لجابر بن عبد الله، وهو لم يشهد معركة أُحُد لعذر استخلافه أبوه إياه على بناته. فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف.[2] والحكمة النبوية التي يمكن استنتاجها تتمثل في مراعاة الأحوال النفسية للصحابة بدعوتهم للقتال بعد الهزيمة، ولو أعفاهم رسول الله ﷺ عن القتال لكانت نتيجته فقدان الثقة والاستسلام لتوابع الهزيمة السابقة. أما تصحيحه فيبدو جليا في أمر حنظلة الأسدي الذي كان يشك في إيمانه لأنه يكون في مجلس رسول الله ﷺ حاضر القلب، حديدَ البصيرة، أما إذا انقلب إلى أهله فكان ينسى ما كان يحسّ به ويعاينه في مجلس الرسول ﷺ، فشاور أبا بكر في المسألة، وأخبره أنه يجد في نفسه ما يجد، ثم ذهبا يستفتيان الرسول ﷺ. فقال ﷺ «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِه إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِى وَفِى الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً - ثَلاَثَ مَرَّاتٍ -».[3]

---

[1] انظر: ابن القيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد** (بيروت: دار ابن حزم، ط2، 2005م)، ص552-553.

[2] انظر: مهدي رزق الله أحمد، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية** (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1992م)، ص407.

[3] النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، **المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله** ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1374هـ)، رقم: 2750.

وبحكم اعتماد ابن خلدون على مصادر الوحي في دراسة العمران البشري، كان تحليله للجماعة يشمل هذا الجانب المهم من تأسيسها، وإدارتها، والحفاظ عليها. لقد اجتهد ابن خلدون في جمع تلك الأبعاد في مجموعة كبيرة من المصطلحات منها: العصبية وما تحمله من الدلالات الشرعية والسلبية، والفطرة، والألفة، والأخلاق، والسعادة، والوازع، وأثر الغلب والتغلب، والمطاولة، والانفراد بالمجد، والمذلة، والتوحش، والهرم. وهي تمثل شبكة المفاهيم النفسية التي اعتمد عليها ابن خلدون في فهم كثير من ظواهر العمران البشري من بينها (الجماعة) أو الجماعات، ولبيان أهمية هذه المفاهيم في بناء الجماعة الفعالة نحاول تفسير العلاقة بين ثلاث من المكونات النفسية للجماعة حسبما فسّرها ابن خلدون، وهذه تتمثل في الوازع الديني، وحالة الألفة، وتحقيق الغلب والمغالبة.

أ. الوازع الديني

إن الجماعات القوية والفعالة حسب رأي ابن خلدون، هي تلك التي يقودها الوازع[1] الديني. بل إن "الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك أصلها الدين"،[2] وذلك لما يحققه من التغلب بعد توفير جملة من الشروط، يدخل معظمها تحت الجانب الروحي والنفسي للإنسان ومن بينها اتفاق الأهواء وجمع القلوب، وحصول الوازع لإقامة دين بعينه. وأهم ما أشار إليه ابن خلدون بخصوص هذا المفهوم هو أن أصل الوازع على ضربين؛ داخلي وخارجي، وكما اتّجه الوازع إلى ذات الإنسان؛ ليصبح ذاتيًّا كان أقرب إلى القوّة والثبات، والاستقامة. ولقد جاء في دعاء سليمان﴿وَقَالَ رَبِّ

[1] وأصل الكلمة "انَزع هو كفَّ، أوزعه بالشيء: أغراه، فأُوزع به، بالضم، فهو مُوزَع: مغرى به، والاسم والمصدر: الوَزوع، بالفتح. والوَزَعَة، محرَّكةً، جمع وازع، وهم الولاة المانعون من محارم الله تعالى، والوزاع: الكلب، والزاجر، ومن يدبّر أمور الجيش، ويردّ من شذَّ منهم،... وأَوْزَعَنِي الله: ألهمني، .... والمُتَّزِعُ: الشَّديد النفس"، انظر: الفيروزآبادي، **القاموس المحيط** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط7، 2003م)، مادة: وزع، ص770.

[2] ابن خلدون، **المقدمة**، ج1، ص267.

أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النمل: 19). لقد أشار ابن خلدون في هذه المسألة إلى أحد أسرار قوة الدعوة الإسلامية في عهد الصحابة، وهو كونهم يتمتعون بخاصّية (ذاتية الوازع)، مما جعل انقيادهم للشرع سبيلاً لتنمية قواهم الفطرية التي منحها الله لهم مثل الشجاعة والبأس، والصدق والتضحية، وكلّ الصفات التي تدخل في كمال الإنسان الموحّد العابد لله.

يقول ابن خلدون: "ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة، ولم ينقص ذلك من بأسهم، بل كانوا أشدّ الناس بأساً؛ لأن الشارع صلوات الله عليه، لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعه فيه من أنفسهم، لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب. ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي، إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقَّاة نقلاً، يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق".[1] إن الذي يربط الوازع بفعاليّة الجماعة الدعوية هو أثره على شخصية أفراد تلك الجماعة. بحيث إذا كان ذلك الوازع خارجياً بمعنى ارتباط الفرد في إدارة حياته، وبناء شخصيته الدينية، والاجتماعية على حافز موضوعي خارج ذاته، أو بتعبير ابن خلدون "أي يكون الإنسان في ملك غيره"[2]، وهذا يجعله وازعًا متقطعًا وليس مستمرًّا، فسلوكه يكون حسب قوة ذات الحافز الخارجي وحضوره، فكلما كان قوياً وحاضراً كانت استجابته له أنفع، وأقوى، وأكمل. ولكن هذا الوازع الخارجي يتسبب في آثار جانبية سلبية خاصّة إذا كانت "الملكة وأحكامها بالقهر والسطو، فتكسر حينئذ من سوْرَة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل

[1] ابن خلدون، **المقدمة**، ج1، ص203.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص202.

في النفوس المضطهدة"[1]، ولكن قد يحتفظ أفراد الجماعة بخصوصيات إيجابية في حالة كون تلك الملكة "رفيقة وعادلة لا يُعَانَى منها حُكمٌ ولامَنْعٌ ولا صَدٌّ".[2] ولو حاول الباحث تفسير سلبية بعض الجماعات وأتباعها، سيجد أن أصل مشكلتها مرتبط أشد الارتباط في بناء الوازع الذاتي في أفراد تلك الجماعة، وهذه الظاهرة تبدو واضحة في الجماعات الصوفية المنحرفة التي يكون فيها شيخ الطريقة مصدراً خارجياً للوازع الذي يعتمد عليه أتباعه في بناء ذاتهم الدينية، وتطهير نفوسهم. فأتباع هذه الجماعات غالباً ما تطغى عليها صفة السلبية، والحياد الصامت، والعزلة تجاه الأعراض والتحولات، والتقلبات، والأحوال التي تمرّ على العمران البشري الذي ينتمون إليه. وهنا نستنتج أنّه كُلَّما نجحت الجماعة وقيادتها في تحويل الوازع الخارجي إلى أحوال ذاتية يحس بها ويشهدها أتباعها، يكون فعل تلك الجماعة وأثرها مثمرًا ومناسباً، ومتزناً، وأصيلاً، ومانعاً، وسديداً وغيرها من الصفات الإجابية التي تتعلق بإرادة الفعل عند الإنسان. ولا يكفي أن يكون ذاتياً حتى يحقق أفراد الجماعة الدينية تلك الصفات الإيجابية، بل يجب أن يكون دينياً، نابعاً من الشرع علماً، وقصداً، وفعلاً، وأثراً. وبدون ذلك يكون ذلك الوازع ضحية لكثير من القوى النفسية الشريرة التي خلقها الله في فطرة الإنسان، والتي حذّر منها القرآن الكريم، ومنها الهوى، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة: 48).

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

ب. حالة الأُلفة[1]

إن حال الألفة هي التي تجعل الاجتماع البشري ممكناً، وبدونها يتعذر وجود شروط التساكن، والاجتماع، والتعاون والدخول تحت أنماط أخرى من العلاقات التي تفرضها أغراض الحياة البشرية المختلفة ومصالحها. لقد اشتهرت مبادئ تشير إلى هذا الشرط في كتب الدعوة الإسلامية (التأليف قبل التعريف)، و(التعريف قبل التكليف)، وهي تعبر حقيقة عن منطق نفسي دقيق يجب العمل به وفق سننه، لبناء جماعة دعوية وإداراتها بفعاليّة. لقد أشار القرآن إلى هذه الحالة النفسية والاجتماعية في عدة مناسبات منها: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران: 103)، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: 63)، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ (التوبة: 60). وفيما يتعلق بالمؤلفة قلوبهم، فقد أُمر النبي ﷺ بتألُّفهم، وإعطائهم ليُرغبوا من وراءهم في الإسلام". فالألفة كما أبانت الآية الأولى الشرط السابق لقيام الأخوة الإسلامية، وبهذا المعنى تكون عملية التأليف بمثابة عملية التطهير لتذليل العوائق التي تقف أمام نسج خيوط الأخوة بين أفراد الجماعة، وبهذا المعنى يفهم كذلك كيف أن الله ذكر في الآية الأخرى أنّ الأخوةَ الدينية أساس عظيم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: 10)، فهي العمود الفقري الذي تقوم عليه الجماعة الدعوية الفعالة مع أسبقية شرط الإيمان، بحيث كلما كان الإيمان قوياً كانت تلك الرابطة الأخوية أقوى والعكس صحيح، أي كلما ضعف الإيمان ضعفت معه الأخوة الإسلامية،[2] وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح في واقع الأمة والمجتمع الإسلامي الحاضر.

---

[1] كلمة "الألفة" من "الائتلاف"، وتألّفَ فلاناً: داراه، وقاربه، ووصله حتى يستميله إليه. انظر: القاموس المحيط، مادة:" ألف"، ص798.

[2] لمعرفة مراتب الأخوة الإسلامية ومستوياتها، انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق (القاهرة: مطبعة دار الشعب، د.ت)، ج5، ص931-940.

لا تقتصر فائدة الأُلفة في جمع القلوب فحسب، بل تعمل كذلك على تحقيق أوجه التكامل بين الطبائع النفسية لأفراد الجماعة الواحدة وقدراتهم، ففي تاريخ الجماعات شواهد كثيرة تعكس تلك الأحوال في أروع أمثلة قدّمها الإنسان، فعلى سبيل المثال، استطاع خليفة الرسول ﷺ أبو بكر الصديق أن يفسّر شدّة عمر ابن الخطاب بأنه ليس سلوكًا منحرفًا أو مخالفًا، بل هو تنوع نفسي داعم لجوانب من شخصيته كاللين والرقة اللتين عُرف بهما، بحيث لمّا نزل بأبي بكر ﷺ الموت، دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: "أخبرني عن عمر فقال: إنه أفضل مَنْ رأيتُ، إلا أنه فيه غلظة" فقال أبو بكر: ذلك لأنّه يراني رقيقاً، ولو أفضَى الأمر إليه؛ لترك كثيراً مما هو عليه، وقد رمقته فكنتُ إذا غضبتُ على رجل أراني الرضاء عنه، وإذا لنتُ له أراني الشدّة عليه".[1]

لقد حاول ابن خلدون في عديد من المناسبات أن يفسّر ظاهرة الأُلفة، وحاول بيان دلالاتها من زوايا مختلفة؛ دينية، وعمرانية، وعلمية. ومن الممهدات الإيجابية التي أشار إليها؛ لتحقيق هذا الشرط في الجماعة الفعَّالة ما يلي: اتفاق الأهواء، وانصراف القلوب إلى الحقّ، رفض الدنيا، ورفض الباطل، وقلّة الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد، والاستماتة والتضحية، وتفرّد الوجهة إلى الحق، وتساوي المطلوب عند الجميع. وإلى جانب هذا أشار كذلك إلى جملة من العراقيل التي قد تحول دون تحقيق الألفة منها: حبّ الدنيا، والترف، والتنافس الموجه نحوهما، والتخاذل لتقية الموت، وقبول الذل والوقوع تحته.[2]

ج . التغلّب والمغالبة

لما كان هدف الجماعة الدعوية حتماً هو إحداث التغيير الإيجابي الشامل في المجتمع، كان عليها أن تجيد التعامل مع مختلف العراقيل التي تخلقها الاتجاهات المعارضة لهذا النمط من التغيير؛ والتي قد تكون في همم قوة هذه الجماعة الدعوية، وذلك لأن اتجاه المجتمعات

---

[1] خطاب، محمود شيت، **قادة النبي** ﷺ (دمشق: دار القلم، ط1، 1995م)، ص268.

[2] انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، ج1، ص266-267.

والجماعات المدنية التي بدأ نفوذها يتسع في العالم الإسلامي تقوم على فلسفة مادية لادينية،[1] ولهذا فإن معظمها يعتبر أن أي نشاط ديني فعَّال ومؤثر اتجاه منافس ومهدد لكيانها، ويجب إيقافه بأي وسلية، وفي كثير من الأحيان تكون هذه الوسيلة غير قانونية وفقاً للقانون الذي يعملون به، ويفرضونه على الشعوب الإسلامية.

إنَّ وجود هذه العراقيل من المنظور القرآني هو جزء لا يتجزأ من البناء الأساسي للجماعة وتكوينها الطبيعي، وهو الجانب الذي يكوِّن مراحل امتحانها وتقوية أعضائها وانتشار دعوتها بحجم قِيم الرسالة التي تتبناها الجماعة الدعوية. وهذه سنة الله في الخلق والعمران الديني للعالم. فقصص الأنبياء التي اعتنى القرآن بعرض كثير من وقائعها يمكن تصنيفها إلى ثلاث مجموعات من الأخبار، وهي: أخبار الرسل والأنبياء، وأخبار أتباعهم وما يقدمونه من قيم عالية كالنصرة والتأسي والصبر، وأخبار متعلقة بالمعارضين، والرافضين لرسالة الأنبياء، وما يفعلونه لتزيين الضلال، وتضليل الخلق.

إنَّ الناظر في حياة الجماعة الدعوية يرى أن كثيرًا منها تجهل أو تتجاهل هذه السنة الإلهية، أو أنها تتعامل معها بسذاجة أو بساطة، فهي بدلاً من أن تتجه نحو الاستعداد، والتخطيط، والتزوُّد بالمدعمات الروحية، والنفسية، والعلمية، والاجتماعية؛ لتجاوزها وفق هداية الوحي وحكمة السنة النبوية، فتراها تتجه إلى (خطاب الشكايات)، أو (خطاب الانتعاش) الذي يدلُّ على عدم قدرتها على استثمار ثروتها البشرية، وما تحمله من القدرات التي منحها الله لها. وحين تصل الجماعة إلى هذه الدوامة لا تلبث أن

---

[1] لمعرفة تاريخ ودلالات هذا المفهوم وأبعاده وسلبياته على المجتمع المسلم، وكيفية مواجهته، انظر على سبيل المثال: عمارة، محمد، **الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية** (القاهرة: دار الشروق، ط1، 2003م)، ص2-22؛ الحوالي، سفر بن عبد الرحمن، **العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة** (د.م.، دار الهجرة، د.ت)، ص561-621؛ العطاس، سيد محمد نقيب، **مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية**، ترجمة: محمد الطاهر ميساوي (كوالا لمبور: المعهد العالمي العالي للفكر والحضارة الإسلامية، 2000).

تستسلم لإملاءات الجماعات الخارجية المناهضة لها، والتي تدفعها في الغالب إلى الخروج من ساحات الفعل الدعوي، وبذلك تنقلها من محيط (العمران البشري) إلى مرحلة (التاريخ البشري)، وهذا ما حدث بالفعل في تاريخ الدعوة الإسلامية في شمال إفريقية لمدة ثلاثة عقود من الزمن.

2. الفعَّالية في الدعوة: شبكة العلاقات

لقد أشار ابن خلدون إلى هذا العنصر حين درس دور العصبية في إنجاح الدعوة الدينية، ودرو هذه الأخيرة في صياغة (العصبية المشروعة) الموافقة لمقاصد الدين، وهي التي تُعنى بالدفاع عن الحقّ والاستماتة من أجله ومحاربة الباطل. في فصل (أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم) المشار إليه سابقاً وضع ابن خلدون قانونًا عمرانيًّا مهمًّا في بناء (الجماعة الدعوية الفعَّالة)، وهذا يمكن صياغته كالتالي: كلما كانت عصبية الجماعة أو الداعية قويّة كان نجاح الدعوة أكبر، والعكس صحيح، أي كلما ضعفت العصبية، ضعفت معها الجماعة الدعوية وإن كانت دعوتها هي دعوة حق، وذلك لأن العصبية المقصودة هنا مركب العلاقات التي تجمع علاقة الدم، والدين، والولاء، وهذا المركب يعمل على تشكيل ما يمكن تسميته بـــ (المناعة العمرانية المادية) التي تسهل الطريق أمام الجماعة الدعوية للوصول إلى الناس، وكسب مواقع اجتماعية ضرورية للدعوة والقيام بمهامها على أحسن وجه. استدلّ ابن خلدون على هذه الفكر بالرجوع إلى حديث رسول الله ﷺ «ما بعث الله نبياً إلا في مِنْعَةِ قومه». عن علي: أنه خطب فقال عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته؛ إنه إن كف يده عنهم كف يداً واحدةً، وكفوا عنه أيْديًا كثيرة مع مودتهم وحفاظهم ونصرتهم حتى لربما غضب الرجل للرجل، وما يعرفه إلا بحسبه. وسأتلو

عليكم بذلك آيات من كتاب الله فتلا هذه الآية: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: 80)، قال علي: والركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عشيرة، فوالذى لا إله غيره ما بعث الله نبيًّا بعد لوط إلا في ثروةٍ من قومه، وتلا هذه الآية فى شعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ (هود: 91)، قال: كان مكفوفًا فنسبوه إلى الضعف: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود: 91)، قال علي: فوالله الذى لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم، ما هابوا إلا العشيرة"،[1] وقال سيد قطب تعليقًا على موقف قوم شعيب "وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة، والقِيم الرفيعة، والمثل العالية؛ فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة، ولا لحقيقة كبيرة؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه. أما حرمة العقيدة، والحق، والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية"[2] .

ونظام العلاقات التي تتولد عنها "الجماعة الدينية الفعالة" تكون متميزة؛ لتميز الدور الذي يجب القيام به في المجتمع. وأول هذه الخصوصيات تتمثل في أن جميع العلاقات يجب أن ترتبط بعلاقة (الحياة الروحية) التي يكتسبها الفرد من خلال بناء علاقته بالله. فالسنة الإلهية (التأليف) أو (الألفة) التي تتحكم في هذا الجانب يمكن صياغته على النحو التالي: كلما كانت علاقة أفراد الجماعة الدينية بالله قوية كانت العلاقات بينهم أقوى، والعكس صحيح كذلك؛ أي كلما كانت علاقاتهم بالله ضعيفة كانت هذه الأخيرة فيما بينهم أضعف. يقول الله تعالى في محكم التنـــزيل:﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: 63).

---

[1] السيوطي، جلال الدين، **جامع الأحاديث**: مسند علي بن أبي طالب، ج30، ص43.

[2] قطب، سيد، **في ظلال القرآن** (القاهرة: دار الشروق، ط 32، 2003)، ج12، 1922.

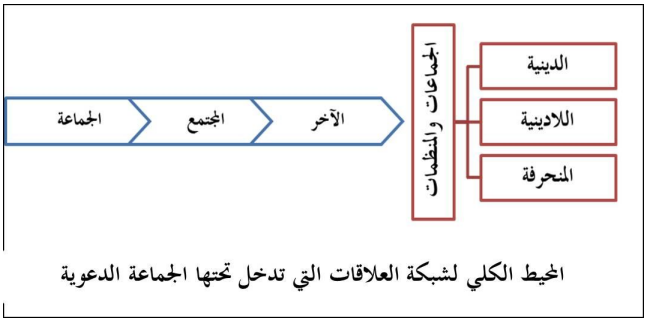

المحيط الكلي لشبكة العلاقات التي تدخل تحتها الجماعة الدعوية

وإلى جانت تلك العلاقات الداخلية الروحية التي يجب أن يدخل فيها أتباع الجماعة، ثمة نظام خارجي للعلاقات التي من خلالها تتعامل الجماعة مع الجماعات المخالفة لها في العقيدة، والنظرة الكونية للحياة، وإتجاهها، والوسائل التي توظفها، والمجالات العمرانية التي تتحرك فيها.

3. وسائل الجماعة الدعوية الفعَالة

أ. المعرفة الحالية

يمثل هذا العنصر أسُّ الداعية والانجاز الفعلي للجماعة الفعالة، لأن بناء الأحوال وتشكيلها وحمايتها يعدّ من الوسائل المهمة للجماعة الفعالة. فنظرية التغيير في عقل الجماعة الفعالة عملية أدقّ من بناء المجتمع ذاته؛ لأن ذلك التغيير الذي تنشده الجماعة الفعّالة هو الذي يعطي المجتمع الحياة، ويحافظ عليه ويتوجهه بها إلى الطريق الصحيح. لهذا السبب نجد أن بعض علماء المسلمين فضَّلوا استعمال لغة دينية في مشروعاتهم الإصلاحية وهي أقرب ما تكون إلى هدف (الحياة) وما يرمز إليها، ويقصدون بها حياة الروح والقلوب كما كان واضحاً في اتجاه أبي حامد الغزالي في كتاب (إحياء علوم الدين). ولقد قابل ابن خلدون بين المعرفة الحالية، ومعرفة أخرى سماها معرفة الرسم، وهي التي أشار إليها محمد الغزالي في ثنائية (علم مقطوع عن الله) و(إنسان

مقطوع عن الله).[1] إن المعرفة الحقيقية التي تدير الجماعة الدعوية الفعالة هي التي يتحوّل فيها مقال (العلم) إلى مقام (الحال)، أو بتعبير ابن خلدون "العلم الحاصل عن الاتّصاف ضرورة، هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتّصاف".[2] إن الفرق بين الوضعين كما شرحه ابن خلدون؛ "أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم، والمسكين قربة إلى الله تعالى، مندوب إليها، ويقول بذلك ويعترف به، ويذكر مأخذه من الشريعة؛ وهو لو رأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين، لفرّ عنه، واستنكف أن يباشره، فضلاً عن التمسيح عليه للرحمة، وما بعد ذاك من مقامات العطف والحنوّ والصدقة. فهذا إنما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم، ولم يحصل له مقام الحال والاتّصاف".[3] ومعرفة الحال الحقيقية يكون بناؤها في الجماعة الدعوية الفعَّالية وفق شرطين؛ شرط السلوك الظاهري بأعلى درجة من الوعي والقصد حتى يصبح مَلَكَة راسخة واتّصاف محقق[4]؛ لأن "المطلوب في التكاليف كلّها حصول ملكة راسخة في النفس ينشأ عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد، وهو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة، وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية".[5] وإذا لم يتحقق هذا الشرط يتحول السلوك الفردي والجماعي لتلك الجماعة إلى مجرّد عادات جامدة لا حياة فيها. أما الثاني فيتمثل في شرط الأحوال القلبية وما تشتمل عليه من عمليات نفسية متعددة ومعقَّدة ومتداخلة؛ يدخل تحتها الشعور أو الإحساس الداخلي، والإرادات، والقصود، والنوايا، والنوازع، والأغراض، والذاكر، والتذكر، والتعقل والفهم، والتبصر، وكل العمليات التي تشكل حياة الإنسان النفسية والوعي قبل أن

---

[1] الغزالي، محمد، **الدعوة الإسلامية في القرن الحالي** (القاهرة: دار الشروق، د.ت)، ص7.

[2] **المقدمة**، تحقيق: الشدادي، مرجع سابق، ج3، ص27.

[3] ابن خلدون، **المقدمة**، ج3، ص27.

[4] المصدر نفسه، ج3، ص28.

[5] المصدر نفسه، ج3، ص28.

يتحول إلى سلوك خارجي. إن حجم هذا العالم في الجماعة الدعوية الفعالة لا يقلّ على عالمها الظاهري وتجليتها في العمران البشري، وكيان الأمّة الواحدة.

وهكذا تبقى (المعرفة الحالية) هي أكثر نفعاً للجماعة الدعوية الفعَّالة، وأثبت لقلوب أفرادها، وأكثر استقراراً لنظامها لعموم أثرها، ودخولها في تشكيل شخصية المسلم في كلّيتها، بينما تصبح المعرفة المجرّدة عن (الاتّصاف) ناقصة، وقليلة الجدوى والنفع لظام حياة تلك الجماعة واستمرارها. وبدونها كذلك تحرم الجماعة نفسها من السعي الناجح والاستمرار والقَبول، وهو ما يقصده ابن حزم حين عرَّف أفضل العلوم في قوله أنه: "ما أدّى إلى الخلاص في دار الخلود، ووصل إلى الفوز في دار البقاء، فطالب هذه العلوم [العلوم التي يكتسب بها المال] بهذه النية هو المستعيض بتعب يسير راحة الأبد، وهو ذو الصفقة الرابحة والسعي المنجح الذي بذل قليلاً، واستحقّ كثيراً، وأعطى تافها وأخذ عظيماً، وهو الذي عرف ما لا يبقى معه فزهد فيه، وميّز ما لا يزايله فسعى له".[1]

ب. الحكمة والقوة

لقد أبرز القرآن أهمية هاتين الوسيلتن في مواضع عديدة، أما (الحكمة) فقد جاءت في القرآن الكريم في 18 موضعاً، وجاءت مسبوقة بكلمة "الكتب" في تسع مناسبات، ومنفردة في تسع. كما جاءت مقترنة بكلمات قرآنية كالتزكية (البقرة:؛ محمد: 129)، والموعظة الحسنة (النحل: 125)، والملك (البقرة: 251)، وآيات الله (الأحزاب: 34)، والبينات، (الزخرف: 63)، وفصل الخطاب (لقمان: 12؛ ص: 20). ولقد وصف الله (الحكمة) بـــ "**خَيْرًا كَثِيرًا**"، قال الله في محكم التنـــزيل: ﴿**يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾ (البقرة: 269).

---

[1] ابن حزم، علي بن أحمد، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1983م)، ج4، ص64-65.

وأما القوة، فهي خير كذلك إذا ما اقترن استعمالها في سبيل الله بإخلاص وعلم وحكمة، ولقد سماها نبي الله لوط (الركن الشديد)، وتمنى امتلاكها للدفاع عن حرمات الله (هود: 80). والقوة كذلك تعني الجدّ، والصبر، والاحتمال (الأعراف: 145). كما أمر الله تعالى عباده بالعمل على إعداد وسائل القوة لإرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين (الأنفال: 60)، والقوّة كذلك وسيلة إيجابية في إثارة الأرض، وتعميرها في إطار مقاصد الشرع كحفظ النفس كما جاء واضحاً حين طلبها ذو القرنين لاستكمال بناء السدّ حفاظاً على أرواح الناس من خطر يأجوج ومأجوج (الكهف: 95). والقوّة كما أشار ذلك القرآن تكون ثمرة الاستغفار والعودة إلى الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ (هود: 52)، والقوّة كذلك قد توجه إلى عكس قبلة الخير، وتوظف في سبل الشر حين تقترن بارتكاب الذنب والاستكبار من خلال شتى الوسائل، وهذا ما أشار إليه القرآن حين عرض العواقب السيئة التي وقعتْ فيها قرى وأقوام عارضوا أنبيائهم، وكذَّبُوا رسالاتهم غروراً بالقوة التي منحها الله لهم (فاطر: 44، غافر: 21، 82). والقوة عامل مُهِم في توفير الشروط النفسية، والظروف الموضوعية لاتخاذ القرارات، لهذا أشار إليها ملأ ملكة السبأ (النمل: 33) حين طلبت منهم رأيهم في رسالة سليمان التي وصفته بـــ (كِتَابٌ كَرِيمٌ) كان نصها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل: 30-31).

لقد قدم القرآن الكريم نموذجًا لجماعة دينية عارية من هذه الميزة وما ترتب عنه من السلبية التي أدّت بهم إلى الانهيار والسقوط، وهذا المثال هو لجماعة بني إسرائل الذين ساروا مع موسى لمقاتلة العمالقة في فلسطين. فلقد قدّم القرآن علاجاً قاسياً لذلك المرض وهو (تيههم أربعين سنة)، وهي مدّة تكفي لنهاية جيل وتنشئة جيل جديد على ظروف القوّة، والبأس، والتضحية، وهي القِيَم الذي يقدمها المحيط

الصحراويّ المنعزل الجاف، والذي يفرض نمطاً من السلوك على الإنسان يجعله يقترب مما يشترطه مبدأ (المطالبة القوية) في الدعوة إلى الله.

لقد أشار ابن خلدون إلى أهمية عنصر القوة في إثبات الفعاليَّة، ودرس وجوه فائدته في إدارة الملك، والدعوة، والإصلاح في العمران البشري، فجاء مفهوم القوة في نصوص (المقدمة) مقترناً بمجموعة أخرى من المفاهيم تشكل نسقاً من التصورات حول وسائل التغيير في العمران البشري، وهذه تتمثل في: المغالبة، والغالب والمغلوب والتقليد أو الاتباع، والتوازن، والتمكين، والظهور، والولاء. وهذا إضافة إلى ما سماه بـــ (المطالبة القوية) القائمة على علائق الدم، وعصبية القبائل والعشائر،[1] والتي جعلها سبيلاً إلى تحقيق الحماية، وإدارة المدافعة، واستمرار المقاومة.

ت. الظرف والمناسبة

إن حياة الأفراد هي جملة من الظروف والأحوال، فكلَّما كان الظرف مناسبًا كانت نسبة تحقيق الغاية أو الهدف أنسب، وهذا ينطبق كذلك على الجماعة. إن الذين يحسنون قراءة ظروف الأفراد والجماعات يحسنون كذلك تنمية قدرات هؤلاء الأفراد وتلك الجماعات؛ لأن وعيهم ومعرفتهم تلك تسمح لهم بتذليل الصعوبات، وتجنب العراقيل التي تواجههم في أحوال غير مناسبة. فقصّة إبراهيم عليه السلام تدل على هذا المبدأ حين أراد أن يرشد قومه إلى عدم جدوى عبادة الأصنام بتكسيرها، أملاً منه أن يرجعوا بعد ذلك إلى الله وإلى شرعه. الظرف المناسب الذي عينه إبراهيم هو خروج قومه في عيدهم، قال عزّ وجلّ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأنبياء: 56-58). لم يستفد القوم من المفاجأة التي أعدّها لهم إبراهيم، لكن توابعها الحتمية وشعورهم بضعف

[1] ابن خلدون، **المقدمة**، ج1، ص270.

الآلهة التي يعبدونها كانت من منجزات فطنة إبراهيم التي وهبها الله له في الدعوة إليه بالحكمة. وتفعيل المناسبة أو الظرف يكون بشروطه الأساسية، وهي تقوم على مراعاة ثلاثة أمور: وعي ومعرفة أحوال العمران البشري بجزئياته كمعرفة الأعراف، وخصائص أخرى كثيرة التعلق بوحدة المكان، والزمان، وقدرات الداعية النفسية، والعلمية، والمادية، والحالة الواقعية للمدعوين. فإذا حدث نقص في استيعاب هذه الأمور الثلاثة قد يتأخر حصول ثمرة تلك الدعوة، ولكن في كلّ الأحوال يكون ما يترتب عنها إيجابياً إذا ما توفرت شروط الدعوة الكبرى كالإخلاص في العمل لله.

ث. التنظيم والحركة المقصودة

تتميز طبيعة العمران البشري بالتغير والتقلبات والتغلبات، فقد يجد الداعي أن أعراض العمران البشري لا تناسب قدراته الدعوية، وهي الحالة التي سماها القرآن (مراغمًا كثيرًا) (النساء: 100) فعليه أن يتحرك نحو الخروج (النساء: 100) والسير في الأرض أو الهجرة -كما سمّاه القرآن الكريم في عدة مناسبات- التي يتطلع الداعية من خلالها إلى معرفة أخرى تسهل له التعرف على صُور أخرى من التجارب الدعوية، وأشكال التدافع بين الجماعات لتنمية آفاقه، وتوسيع نظرته وتحليله لنتائج الفعل الدعوي، وهو مفتاح في غاية الأهمية لاكتساب الرشد الدعوي. فهذه الحركة ذات فائدتين إحداهما: تذليل الصعوبات وتجاوز الحتميات، وأشكال القهر الاجتماعي والسياسي للوصول إلى الناس، وهو شرط تبليغ الدعوة، والثانية الدخول في تكوين عملي يجعله يفقه من خلال التجربة طبيعة العمران البشري، وكل ما تحمله الملابسات والظواهر المعقدة التي تعد من ضمن أولويات الجماعة الدعوية الفعَّالة التي يجب التعامل معها. ولقد وصف القرآن هذا التركيب بين السير في الأرض واكتساب الداعي للمعرفة العملية بـــ "تعقل القلوب" (القرآن: الحج: 46)، وهي نوع من المعرفة التي تنقل الداعي من مستوى إلى مستوى أعلى منه في العلم والعمل والقرب من الله. وهذا

الشرطُ يجعل الفرقَ واضحًا جداً بين الدعاة المهاجرين والدعاة المحليين، فالأفق العلمي والحكمة للنوع الثاني غالباً ما يكون أقل من الأول، ولهذا كانت الهجرة عند السلف وسيلة للتكوين وإقامة الدين والدعوة، ولذلك جعلوها جزءًا لا يتجزء من برامجهم التعليمية، فاشتهرت بذلك كثير من الكتب التي تعاين هذه المرحلة من بناء الملكات، وما تلزمه رسالة الدعوة إلى الله وتحقيق الفعالية فيها، مثل تلك التي تحمل عنوان (الرحلة)، و(الرحلة المشرقية)، و(رحلة الحج)، أو (رحلة الشرق والغرب)، كما هو الحال في كتاب ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا). لكن هذا النوع من الحركة قد لا يجدي نفعاً إذا كان فعلها مبني على العفوية والفوضى والسذاجة، وهي كلّها مفاهيم سلبية تقابل مفاهيم إيجابية مثل: القوّة، والوحدة، والنواميس الكونية.[1] إن نجاح أي جماعة يتوقف مادياً على الأسلوب الذي تسلكه في أداء أعمالها وبناء علاقاتها في المحيط الذي تتحرك فيه. فقد أولى رسول الله ﷺ هذا الجانب اهتماما خاصًّا، بحيث أمر بتعيين أمير يتولى أمر النظام في جماعة يكون حجمها العددي أكثر من اثنين. قال رسول الله ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فأمِّروا عليهم أحدهم»[2] وبهذا المعنى يكون شرط التنظيم وما يقوم عليه من الأعمال والقدرات والمهارات جزءًا لا يمكن أبدًا الاستغناء عنه في بناء الجماعة الدعوية الفعّالة.

خامساً: قياس فعاليَّة الجماعات الدعوية وفق معايير الوحي

أ. معيار العبودية أو مركب الإيمان والعلم والعمل

إن فعاليّة الجماعة الدعوية تُقاس وتُقيم أولاً وفق النسبة التي تحققها من المقصد الأسمى من خلق البشر، وهو عبادة الله وفق عقيدة صحيحة، وشريعة إلهية شاملة،

---

[1] انظر: يكن، فتحي، **أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط12، 1978م)، ص12-13.

[2] البويصري، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل، **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة** (الرياض: مكتبة الرشد، 1998م)، كتاب الإمارة، ج5، ص35.

يقول الله تعالى في محكم التنـــزيل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56). فالدعوة إلى الله وحده والعمل على تجسيد ذلك في الواقع "كانت منطلق كلّ الرسالات السماوية، ومقصدها الأول، من أجل تحرير ولاء الإنسان لله وحده، لما في ذلك من تحرير حقيقي لأرادة الكائن البشري وطاقته وقدراته، وتحريك لها في الاتجاه الصحيح المؤدي إلى تحقيق الغرض من وجوده وتكريمه وتفضيله".[1] ولقد أشارت كتب الدعوة إلى هذا المعيار تحت مبدأ "حراسة الدين".[2]

إن صدارة هذا المقياس تدعمه الصورة البيانية التي عرفت به؛ وقد جاءت في صورة آية تحمل النفس والاستثناء اللذين جعلا مضمونها يخرج في أقوى صور الحصر والقصر، فضلاً عن الظهور الكثيف لكمة (العبادة) ومشتقاتها في القرآن وكذلك (الإيمان) و(العمل)، ولقد بلغ ظهور كلمة العبادة على سبيل المثال 271 مرّةً. فالعبودية المقصودة هنا ذلك السلوك الديني الشامل الذي ينبعث من إرادة الإنسان وتصوراته، وشعوره، وأفعاله، ويكون المقصد الأعلى للجماعة الدينية التي ينضم إليها. وأما العبودية القهرية، فهو المعنى الذي أشار إليه ابن عباس حين قال: "معنى "ليعبدون" أي ليتذللوا لي ولقدرتي، وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع.[3] فهي تمثل مسألة حتمية لدى الجميع، فلا تخضع للمبادئ القيمية كالفعاليَّة. إن السعي لتحقيق مقصد العبودية بذلك الاستثناء (إلا) المنفرد، أمر ليس سهلاً، لكن الله يسّره على خلقه، وجعل مفهوم العبادة في الإسلام أوسع من دائرة التكاليف الشرعية ومناسكها، ولهذا السبب أصبح مقصد العبودية على إطلاقه ممكناً على مستوى الأفراد والجماعات

---

[1] الطيب برغوث، **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ومنجزاتها في المرحلة المكية** (هيرند: فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1996م)، ص91.

[2] انظر على سبيل المثال: زيدان، عبد الكريم، **أصول الدعوة** (بغداد: دار المنار، ط3، 1986)، ص221.

[3] عبد الرحمن بن تمام ابن عطية، **تفسير المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (بيروت: دار الكتاب العلمية، ط1، 2001م)، ج5، ص183.

على السواء. وتحقيق مقصود العبودية بهذا الشكل يكون على مستويين: مستوى الأشخاص أفرادًا وجماعات، ومستوى المؤسسات التي تقوم بتوفير ظروف العمران وشروطه اللازمة للقيام بذلك المقصد على أحسن وجه.

وأما قياس هذه الخاصية لدى الجماعة أثناء امتحان فعاليتها، فهو كذلك أمر ممكن؛ لأن مصادر الوحي أعطت تفصيلاً مهمًّا يتعلق بتحديد المستويات (الإسلام، والإيمان، والإحسان)، وتحديدات العددية المتعلقة بأركان العبادة (الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج)، وبناءً على هذا كان الحاصل من تلك العبادات من أحوال وأفعال الإيمان صفة مقدرة؛ أي تزيد وتنقص. يقول الله في محكم التنـــزيل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (الأنفال: 2)، ويقول عزّ من قائل أيضًا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ (الفتح: 4). وعن عمر بن العزيز رضي الله عنه: "إن للإيمان سنناً وفرائضَ وشرائعَ، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان"،[1] وعليه فإن وضع مقياس العبودية بوصفه شرطًا أوّليًّا لقياس فعاليَّة الجماعة الدعوية يعد خطوة موضوعية على عكس ما يعتقده ويروج له الكثير ويعتبرونه من الجوانب الذاتية الخالصة التي لا تخضع للمناهج العلمية الموضوعية التي تقوم على الملاحظة، ودراسة المعطيات والاختبار، وغيرها من الوسائل التي يحددونها وفق ما يقتضيه موضوع الدراسة.

إن فعاليّة الجماعة وفق هذا المبدأ لا تتوقف على الجانب البنائي فحسب، بل هناك وجه آخر يتمثل في حماية ذلك البناء وفق سنة التدافع مع الاتجاهات والمؤسسات والأفراد والجماعات وأيديولوجياتها التي تعمل وتنشط في اتجاه يقابل تماماً وجهة العبودية أو يجانبها بنسبة تختلف باختلاف أولئك الأفراد والجماعات والمؤسسات التي

---

[1] الزمخشري جار الله أبو القاسم محمد بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (الرياض: مكتبة العبيكان، ط1، 1998م)، ج2، ص552-553.

تدبرها؛ لتحقيق مآربها. فالأرض هي التي يعيش فيها "عبد مهتد مستقيم يصلي، ويريد جعل الصلاة من معالم المجتمع، يتحرك بها ويشرف، ولكن البطالين الكارهين لله لا يريدون الأرض معابد، إنهم يريدونها لأنفسهم ومآربهم وملاهي ومساخر. حسبُ أحدهم من هذه الأرض أن تكفل ضرورته ورفهاته، ولا شيء بعد".[1] إن نسبة النجاح الذي تحققه الجماعة الفعالة في هذا الجانب متوقف على نسبة الطاقة الروحية المكتسبة، والتي يكونها المركب الثلاثي: الإيمان، والعلم، والعمل. يكفي هنا أن نشير إلى تكرار النداء بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في سورة الحجرات، أو "النداء الحبيب" كما سماه سيد قطب،[2] خمس مرّاتٍ، والمعاني التي يحملها ذلك النداء، والتي أشار إلى بعضها الزمخشري في قوله: "إعادة النداء عليهم: استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كلّ خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكلِّ حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب والمحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم. وذلك لأن إعظام صاحب الشرع إعظام لما ورد به، ومستعظم الحقّ لا يدعه استعظامه أن يألو عملا بما يحدوه عليه. وارتداعًا عمَّا يصده عنه، وانتهاء إلى كلِّ خير"[3]

ب. معيار التوحيد والوحدة

إن الذي يميز الجماعة الدعوية المسلمة من غيرها هو مبدأ التوحيد، والذي يميزها عن الجماعة غير الفعّالة هو الوحدة. ولو أردنا قياس الجماعات العاملة في الساحة الدعوية، وتقويم نوعيتها بإخضاعها لمقياس الوحدة نجد أن هذه الجماعات بعيدة جداً عن تحقيق المواصفات والشروط التي وضعها القرآن الكريم مثل شرط توجيه الشدة

---

[1] الغزالي، محمد، **الدعوة الإسلامية في القرن الحالي** (القاهرة:، دار الشروق، د.ت)، ص7.

[2] قطب، **في ظلال القرآن**، ج26، مج 6، ص3338.

[3] الزمخشري، **الكشاف**، ج5، ص556-557؛ انظر كذلك: الأنصاري، محمد بن محمد الأمين، **منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي** (الرياض: مكتبة الأنصار، ط1، 1984م)، ص187-192.

والرحمة وما يستعين به المسلم على اكتساب الاستطاعة، والملكات اللازمة للتأسي بصيغة تلك المعاملة تحت شروط العمران البشري كما ورد في الآية الكريمة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الفتح: 29)، وقد ذكرت السنة النبوية شرطاً آخر يتمثل في تحقيق المودة والتعاطف، يقول الرسول ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[1]، وقوله: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً".[2]

إذا كان عدد المسلمين في الوقت الراهن يتجاوز مليارًا ونصف مليار مسلم، فلا سبيل إلى الادعاء بأن الجماعات الكبيرة المعروفة في العالم الإسلامي قد حققت نسبة جيدة لشرط الوحدة، وسبب ذلك يكمن في الجُدران النفسية الغليظة التي تفصل بين تلك الجماعات وبين بقية المجتمع. لقد أغفل العديد من الجماعات التوابع السلبية الخفية التي تترتب على الاستعمال الخاطئ والضيق لمفهوم (الجماعة المسلمة)، فنجد على سبيل المثال إحدى الجماعات الصوفية في مصر تتباهى بقدرتها العددية؛ وتعلن عن خروج ستة ملايين من أتباعها إلى الشوارع للضغط على النظام السياسي الفاسد ليفتح لها باب المشاركة في صياغة المؤسسات الاجتماعية، وإدارة حياة المسلمين سياسيًّا، ودينيًّا، واقتصاديًّا. وبالرغم ما للجانب الكمي والمادي من الأثر في تحقيق كثير من الأهداف للجماعات المختلفة، إلا أن ذلك العامل لم يكن يوماً في تاريخ الدعوة الإسلامية حاسماً، بل يشهد التاريخ أنه عندما استشعر المسلمون قوتهم المادية والعددية في معركة حنين وقالوا: "لن نغلب اليوم من قلة"، جاءت النتيجة على عكس

---

[1] مسلم، **صحيح مسلم**، باب: تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، ج12، ص468.

[2] البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح**، كتاب الأدب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً (نسخة دار طوق النجاة، 1312هـ)، ج8، ص12.

طموحهم، لكن الله نصرهم في نهاية المعركة بسبب وجود الفئة المؤمنة الحقيقية القليلة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة: 25).

وإذا عدنا إلى الجماعة الصوفية المصرية، فإن نجاحها في إخراج أتباعها الذين بلغ عددهم ستة ملايين لا يعبر عن فعالية الجماعة، وإنما نستطيع وصف فعل الجماعة بالفعاليَّة إذا تمكنت من أن تنقذهم من الجهل، وتحملهم على إقامة الدين بتنفيذ التكاليف الشرعية وتقوية وازعهم الديني، وتوجيهم إلى العمل على إحياء الشروط المعنوية والمادية التي قام عليها المجتمع المسلم الأول من المؤسسات، والإدارة، والعمل المتقن، وإقامة العدل، والأسرة وغيرها، ثم السعي الحثيث إلى تحقيق الأهداف الكبرى للدين. إن العدد الكبير من الأتباع الذي تتباهى به العديد من الجماعات الكبيرة قد لا يحقق شرط الوحدة إذا كان تأثيرها لا يمتد إلى غيرهم من المسلمين الذين ينتمون إلى جماعات أخرى، فالاختلاف لا يضعف تلك الجماعات الكبرى فحسب، بل يضعف الأمة بأسرها، كما قال عبد الكريم زيدان: "كان شر ما تبلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتّى، بحيث ترى كلُّ فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة، أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين".[1] وعلى الرغم من ذلك، فإننا لا نرفض مطلقًا ظهور الاختلاف، لأنها ظاهرة طبيعية في العمران الديني خاصّة فيما يتعلق بتحقيق المناط. وذلك كما أشار إليه أبو إسحاق الشاطبي (ت. 790 هـ) في كتاب

[1] زيدان، عبد الكريم، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1993م)، ص140.

الاجتهاد "يكفيك من ذلك أن الشريعة لم تنصّ على حكم كلّ جزئية على حدتها، وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعداداً لا تنحصر، ومع ذلك فلكلّ معين خصوصية ليست في غيره ولو في نفس التعيين، وليس ما به الامتياز معتبرًا في الحكم بإطلاق، ولا هو طردي بإطلاق، بل ذلك منقسم إلى ضربين؛ وبينهما قسم ثالث يأخذ بجهة من الطرفين. فلا يبقي صورة من الصور الوجودية المعينة إلا وللعالم فيها نظر سهل وصعب، حتى يحقق تحت أي دليل تدخل، فإن أخذت بشبه من الطرفين فالأمر أصعب، وهذا كله بيّن لمن شدا في العلم".[1]

إن معيار التوحيد والوحدة يمثل العمود الفقري للتصميم الذي وضعه الدين الإسلامي لمفهوم الجماعة، ومن خلال لغة القرآن تتكشف لنا هذه الأهمية بسهولة. نجد أن هذا المبدأ أشير إليه بعبارات معينة توحي تعظيم الله لشأنه، ففي سورة (آل عمران: 103)، وردت عبارة (حبل الله) والتكليف والأمر الذي ارتبط به هو (الاعتصام)، والمأمورون بهذا التكليف هم (الجميع)، وجاء فعل آخر ليؤكد معنى الاعتصام أو كيفيته، وهو منع التفرق، ثم ورد فعل آخر يدعم تحقيق مقاصد تلك الأفعال جملة هو (ذكر نعم الله). قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: 103)، وفي موضع آخر وردت عبارة (العروة الوثقى) في موضعين، الأول: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 256)، والثاني: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان: 22). ففي الآية الأولى نجد أن الله قدم وصفًا تأكيديًّا لمعنى "العروة الوثقى" وهو انتفاء (الانفصام). قال ابن عطية

[1] الشاطبي، إبراهم بن موسى أبو إسحاق، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: عبد الله دراز (بيروت: دار الفكر العربي، د.ت)، ج4، ص92.

"استعارة للأمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة، ولا إخلال، والعرى موضع التعليق فكأن المؤمن متعلق بأمر الله فشبه ذلك بالعروة".[1]

وهو الأمر الذي ينطبق كذلك على (الصراط) الذي ورد في سورة الفاتحة، إذ وصف بأنه مستقيم، وتنتفي معه كلّ الصفات السلبية، أي غير السبل التي يسلكها الذين غضب الله عليهم. لقد جاء النهي عن اتباع السبل مباشراً في قوله التعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: 153). فكلمة (السبل) التي نهى عنها الله لها أثر سلبي كبير يشعر بها المرء حين يحاول أن يعرف الأشكال والصور التي تتخذها تلك السبل، وتقاطعها وميلها عن الحقّ في العمران البشري، ودورها في تشكيل التجارب الدينية المنحرفة والخطابات والمؤسسات التي تدعو إلى تلك الأباطيل.

وفي مكان آخر استخدم القرآن (صفة عددية) عوض أي وصف كيفي للتعبير عن مبدأ الوحدة، وهي صيغة أقوى من أي تأويل يروج للخلاف والتعددية التي سقط فيهما كثير من الجماعات. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 92).

ولم يكتف القرآن الكريم بهذا التحديد الدقيق لمعيار الوحدة، بل استكمل وجوه بيان المسألة بالنهي والتحذير مما يقابل الوحدة، وهو الفرقة في الدين والتشيع إلى طوائف وجماعات دينية متفرقة فشلت في استيفاء شروط الجماعة وفق معايير الوحي التي عرضنا بعضاً منها في المقالة. يقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى: 13)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: 159).

---

[1] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج4، ص353.

ت. معيار الإصلاح. (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)

بالنظر إلى الواقع الراهن الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية يَتَبَيَّن أن مهمة الإصلاح تتصدر كلّ الأولويات الأخرى بسبب انتشار الفساد. فالفعل الصالح الصادر من مجتمع فاسد تكون قيمته عظيمة لما يتطلبه من قوى روحية، ونفسية، وسلوكية. وفي كثير من الحالات يكون بداية البناء الإيجابي للمجتمع العادي في مستوى متواضع، وعلى أفراد ذلك المجتمع أن يكون لديهم استعداد أولي لتقبل التوجيهات والدعوة لتتقدموا نحو الأفضل، ولكن في الأحوال التي نعيشها اليوم فالبداية لا تكون إلا من مستويات سقيمة لأن حال الأفراد والمجتمعات فيها أصبحت في حالة من السلبية قد يعجز الإنسان السليم عن تصورها إذا نظر إلى حجم الدعم وقيمة الإمكانيات التي وفرها الله للإنسان والمجتمع ككلّ والتي تمنعه من الوقوع في تلك الظروف الدنيئة من الحياة التي هي أقرب إلى الفوضى والتيه منه إلى النظام والهداية.

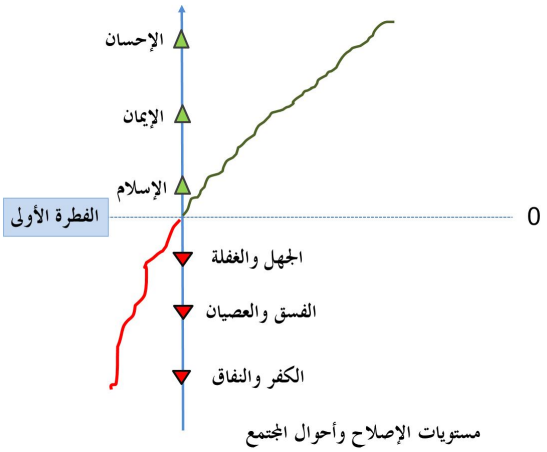

إنَّ عملية الإصلاح قد فصلها القرآن في اتجاهين متلازمين وهما: اتجاه الأمر بالمعروف، واتجاه النهي عن المنكر، وتقع على مستويات مختلفة، ولكل مستوى

أحكامه الثابتة ومتغيراته[1]، ومستلزماته وأدواته ومقوماته التي تسمح للجماعة الدعوية بالقيام بالإنجاز الدعوي الفعَّال، وتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية في ضوء مصادر الوحي. وبالعودة إلى القرآن يمكن تعيين كبرى هذه المستويات المختلفة، وهي نوعان: مستويات سلبية تشمل مستوى النفاق والكفر، ومستوى الفسق والعصيان، ومستوى الجهل. ومستويات إيجابية تبدأ بالإسلام ثم الإيمان وأخيراً الإحسان.

لقد جعل الله عملية الإصلاح وفق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أولى أولويات الأفعال التي يجب للجماعة الدعوية والمجتمع المسلم القيام بها لحماية كيانه، وأداء رسالته في عبادة الله وحده، بحيث كلما ارتفعت نسبة أداء تلك المهمة من قبل الأفراد والمؤسسات داخل المجتمع انخفضت دواعي فساده وانهياره، وكلما نقصت نسبة أدائها ارتفعت أعراض اختلاله وفساده، وقَرُبت نهايته، بل إنَّ امتناع المجتمع عن أداء هذه الوظيفة الحيوية لإقامة الدين والعمران على سواء يجلب لعنة الله وسخطه عليه والذي كثيراً ما يوقع العقاب المستحق بأشكال مختلفة في الدنيا قبل الآخرة. يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكيم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ (المائدة: 78-79).

خلاصة البحث ونتائجه

بعد هذا العرض يمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أن بناء الجماعة الدعوية الفعَّالة علم له قواعده، ومبادئه، ومناهجه، ووسائله التي دلَّت عليها مصادر الوحي وبينت أصولها ونماذجها، فعلى الذين يتوجهون إلى إدارة الجماعات الدعوية تحصيل علوم الوحي المتعلقة بها والعمل بها وفق شروط العمران البشري الذي يعملون وينشطون فيه،

[1] للمزيد من التفاصل حول الثوابت والمتغيرات في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، انظر: الصاوي، صلاح، **الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر** (بدون معلومات النشر)، ص173-189.

وهذا يدخل ضمن الشروط الضرورية التي يقف عليها نجاح الجماعة الدعوية. ولما كان الأمر كذلك، أصبح التقويم العلمي الموضوعي للفعل الدعوي وأداء الجماعة الدعوية ممكنًا بإخضاعهما للمقاييس المستنبطة من مصادر الوحي؛ لتحديد جوانبها الكيفية والكمية على السواء. إن إعمال مقاييس الوحي في تدبير الجماعة الدعوية لا تقاس أهميته من خلال قياس منجزات الدعوة فحسب، بل تمثل كذلك أقوم الحلول لتجاوز الكثير من المشكلات الرئيسة التي تؤثر سلبًا على إقامة الدين، والعمران الإسلامي.

لهذا نلاحظ بدون أي عناء أن ضعف أداء الكثير من الجماعات الدعوية –المحسوبة على الإسلام، ونقص فعاليتها وأثرها في المجتمع رغم كبر حجمها البشري يعود أساساً إلى إهمال جوانب دراسة فعاليتها وتنميتها من خلال الالتزام بالتفعيل المنظّم والمستمرّ لهذه المقاييس التي توفرها مصادر الوحي، واختبارت الفعالية التي يمكن صياغتها منها. إن وضع صور الجماعة الدعوية بهذه الشروط يستلزم تجاوز الثقافة التقليدية في الدعوة التي كثيرًا يجهل أصحابها في كثير من الأحيان التراث العلمي الكبير، والدراسات المتخصصة للمجتمع، وما يتبع ذلك من وسائل المنهج الدعوي النبوي من التخطيط، والتكوين واستشراف المستقبل، وغيرها من الوسائل التي تُعدّ مسالك أساسية وضرورية لبناء الفعاليَّة وحماية الجماعة من الزلل والفشل.

المراجع: References:

Ḥawālī, Safar bin ʿAbd al-Raḥmān, *al-ʿIlmāniyyah: Nash'atuhā wa Taṭawwuruhā wa Āthāruhā fī al-Ḥayāt al-Islāmiyyah al-Muʿāṣirah* (No place: Dār al-Hijrah, no date).

Abū al-Qāsim, Ḥajj Ḥamd, *al-ʿĀlamiyyah al-Islāmiyyah al-Thāniyyah: Jadaliyyāt al-Ghayb wa al-Insān wa al-Ṭabīʿah* (Beirut: al-Markaz al-ʿAlamī li al-Fikr al-Islāmi, 1996).

Aḥmad, Mahdī Rizq Allāh, *al-Sīrah al-Nabawiyyah fī Ḍaw' al-Maṣādir al-Aṣliyyah* (Riyadh: Markaz Fayṣal li al-Buhūth wa al-Dirāsāt al-Islāmiyyah, 1st edition, 1992).

Al-Anṣārī, Muḥammad bin Muḥammad al-Amīn, *Manhaj al-Daʿwah al-Islāmiyyah fī al-Binā' al-Ijtimāʿī* (Riyadh: Maktabat al-Anṣār, 1st edition, 1984).

Al-Attas, S.M. Naquib, *Mudākhalat Falsafiyyah fī al-Islām wa al-ʿIlmāniyyah*, translator: Mohamed El-Tahir El-Mesawi (Kuala Lumpur: IIIT, 2000).

Al-Bukhārī, Muḥammad bin Ismāʻīl, *al-Jāmiʻ al-Ṣaḥīḥ (Ṣaḥīḥ al- Bukhārī)* (No place: Dār Ṭawq al-Najāḥ, 1312).

Al-Buwayṣirī, Aḥmad bin Abī Bakr Ismāʻīl, *Itḥāf al-Khiyarah al-Maharah bi Zawā'id al-Masānid al-ʿAshrah* (Riyadh: Maktabat al-Rushd, 1998).

Al-Fayrūzābādī, Majd al-Dīn Muḥammad bin Yaʻqūb, *Baṣā'ir Dhawī al-Tamyīz fī Laṭā'if al-Kitāb al-ʿAzīz* (Beirut: al-Maktabah al-ʻIlmiyyah, 1984).

Al-Fayruzabadi, Ibn Yaʻqūb Majd al-Dīn Muḥammad, *al-Qāmūs al-Muḥīṭ* (Beirut: Muassasat al-Risalah, 7th edition, 2003).

Al-Ghazālī, Abū Ḥāmid Muḥammad Muḥammad, *Iḥyā' ʿUlūm al-Dīn* (Cairo: Maṭbaʻat Dār al-Shaʻb, no date).

Al-Ghazālī, Muḥammad, *al-Daʿwah al-Islāmiyyah fī al-Qarn al-Ḥālī* (Cairo: Dār al-Shurūq, no date).

Al-Naysābūrī, Muslim bin al-Ḥajjāj al-Qushayrī, *Ṣaḥīḥ Muslim*, ed. Muhammad Fuad Abd al-Baqi (Cairo: Dar Ihya' al-Kutub al-Arabiyyah-Isa al-babi al-Halabi wa Shirkah, 1st edition, 1374).

Al-Ṣāwī, Ṣalāḥ, *al-Thawābit wa al-Mutaghayyirāt fī Masīrat al-ʿAmal al-Islāmī al-Muʿāsir* (no information about the publication).

Al-Qurṭubī, Abū ʻAbdullah Muḥammad bin Aḥmad bin Abī Bakr, *al-Jāmiʻ lī Aḥkām al-Qur'ān wa al-Mubayyin limā Taḍammanahū min al-Sunnah wa Āyī al-Furqān,* ed. Ahmad al-Barduni and Ibrahim Atfayyish (Cairo: Dar al-Kutub al-Misriyyah, 4th edition, 1964).

Al-Rāzī, Fakhr al-Dīn Muḥammad bin ʿUmar, *Mafāatiḥ al-Ghayb* (Cairo: Dār al-Fikr, 1st edition, 1981).

Al-Shāṭibī, Ibrahīm Abū Isḥāq, *al-Muwāfaqāt fī Uṣūl al-Sharīʿah*, ed. ʿAbdullāh Darrāz (No place: Dār al-al-Fikr al-Arabi, no date).

Al-Zamakhsharī, Maḥmūd bin ʻUmar, *al-Kashshāf ʿan Ḥaqā'iq al-Tanzīl wa ʻUyūn al-'Aqāwīl fī Wujūh al-Ta'wīl,* ed. ʿĀdil Ahmad ʿAbd al-Mawjūd and ʿAlī Muḥammad Muʿawwaḍ (Riyadh: Maktabat al-ʿUbaykān, 1st edition, 1998).

Burghūth, al-Ṭayyib, *Manhaj al-Nabī Ṣallallāhu ʿalayhi wa Sallama fī Ḥimāyat al-Daʿwah wa Munjazātuhā fī al-Marḥalah al-Makkiyyah* (Herdon-Virginia: IIIT, 1st edition, 1996).

Fatḥī, Yakan, *Abjadiyyāt al-Taṣawwur al-Ḥarakī li al-ʿAmal al-Islāmī* (Bierut: Muassasat al-Risālah, 12th edition, 1978).

Ibn Ḥazm, ʻAlī bin Aḥmad al-Andalusī, *Rasā'il Ibn Ḥazm al-Andalusī,* ed. Ihsan Abbas (Beirut: al-Muassasat al-Arabiyyah li al-Dirasat wa al-Nashr, 1st edition, 1983).

Ibn al-Qayyim, Muḥammad Shams al-Dīn al-Dimashqī, *Zād al-Maʿād fī Hady Khayr al-ʿIbād* (Beirut: Dār Ibn Ḥazm, 2nd edition, 2005).

Ibn Baṭṭah, Abā ʿAbd Allāh ʿUbayd Allāh al-ʿUkbarī, *al-Ibānah ʿan Sharīʿat al-Firaq al-Nājiyah wa Mujānabat al-Firaq al-Madhmūmah, ed. Riḍā bin Naʿsān Muʿṭī* (Riyadh: Dār al-Rāyah li al-Nashr wa al-Tawzīʻ, 1988).

Ibn Khaldūn, ʿAbd al-Raḥmān bin Muḥammad, *al-Muqaddimah*, ed. Abd al-Salam al-Shidadi (Casablanca: Bayt al-Funun wa al-Ulum wa al-Adab (Sida/Beirut: al-Maktabah al-Asriyyah, 2nd edition, 1416/1996).

Ibn ʿAṭiyyah, ʿAbd al-Raḥmān bin Tamām, *al-Muḥarrar al-Wajīz fī Tafsīr al-Kitāb al-ʿAzīz,* ed. ʿAbd al-Salām ʿAbd al-Shāfī Muḥammad (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, 1st, 2001).

Khaṭṭāb, Maḥmūd Shīt, *Qādat al-Nabī Ṣallallāhu ʿalayhi wa Sallama* (Damascus: Dār al-Qalam, 1st edition, 1995).

ʿImārah, Muāammad, *al-Sharīʿah al-Islāmiyyah wa al-ʿIlmāniyyah al-Gharbiyyah* (Cairo: Dār al-Shurūq, 1st edition, 2003).

Quṭb, Sayyid, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān* (Cairo: Dār al-Shurūq, 32th edition, 2003).

Zaydān, ʿAbd al-Karīm, *al-Sunan al-Ilāhiyyah fī al-Umam wa al-Jamāʿāt wa al-Afrād fī al-Sharīʿah al-Islāmiyyah* ((Beirut: Muassasat al-Risālah, 1st edition, 1993).

Zaydān, ʿAbd al-Karīm, *Uṣūl al-Daʿwah* (Baghdad: 3rd edition, 1986).